أيمن العتوم

طَرِيق جَهَنّم

رواية

مِن جهنّمَ جِئت ، وإلى جهنّم أعود . .

[العقيد]

لم أكنْ بطلاً وحـــدي . . . ولم أعِشْ هذه المِحنة بمفردي ، كان هنالك الآلاف مِمّن واجهوا هذه الآلام مثلما واجَهتُها ، وعانَوا ربّما أكثرَ ممّا عانَيت ، وما سَجّلتُ هنا إلاّ ما سمعتُ ورأيتُ ، ولا أحدَ يدّعي امتلاك الحقيقة المُطلَقة . ولذا ، فهذه دعوةٌ للآخرين الّذين شاركونا المنافي أنْ يصنعوا ما صنعتُ ؛ فإنّما اليمُّ من القطرة ، والجِبال من الحصى .

أمّا الّذين رفرفتْ أرواحُهم خارج أسوار السّجون ، وحلّقتْ بعيدًا في السّماء قبل أنْ تقول لأهل الدّنيا ما كانتْ تودّ أن تقوله ، فلربّما يومًا ما ، يوم الفزع الأكبر سيقولون لله كل شيء ، وسيقفون أمام الجَمْع ليكونوا شهودًا على ما مَرّ بنا مِمّا لا يُمكن تخيّله ، أو الحَدْسُ به .

علي العكرمي

(١)
العقيد

أصلح بدلته العسكريّة أمام المرآة ، هزّ كتفَيه ، رأى النّياشين تملؤهما كما تملأ النّجومُ صفحة السّماء ، اللّون الكاكيّ للبدلة أعطاه ثقة الأيّام الخوالي حينَ كان في العشرين من عمره . نظرَ عميقًا في عينَيه ، هتف : «لقد تغيّرتَ كثيرًا» . ضرب بكفّه اليُمنى على صدره جهة اليسار ، وتابع : «أمّا أنتَ فما زلتَ كما عَهِدْتُكَ ؛ لن تتغيّر أبدًا . الدُّنيا جَمْرٌ وتمر ، وأنا اخترتُ الجمر طواعية» . تلمّسَ الشّعرات النّابتات على ذقنه في الأسفل ، ارتفع بصرُه إلى الأعلى قليلاً ، إلى فمه الّذي يُشبه فم السمكة مبعوجًا كما لو أنّ شللاً ما قد أصابه ، ثُمّ إلى شعراتِ شاربِه الّتي تتناثر فوقَ شفتَيه كحبّاتِ السّمسم السّوداء . شكّ في قدرته على الاستمرار في النّظر في عينَيه ، جال ببصره يسار المرآة ، رأى (منصور) ، و(المعتصم) ، و(يونس) يجلسون كتماثيل شمع بانتظار أوامره . تنهّد طويلاً . خفض بصره ، ذهبَ بخياله بعيدًا . رأى كلّ شيءٍ . النّهايات تبدو قاصِمة ، «هكذا قَدَرُ العُظماء» فكّر ، ثُمّ تابع : «المصائب الكبيرة تختار أكفاءَها» . ابتسمَ ابتسامةً خفيفةً ، رفع رأسه من جديدٍ . نظر إلى الثّلاثة الواجمين خلفه ، ظلّتْ هياكلهم على هيئتها دونَ أنْ تُحرّك ساكِنًا . غاظتْه هذه البلادة الّتي ترتسم على وجوههم . سأل نفسه : «هل أنا من طينة هؤلاء؟» . جاءه الجواب من أعماقه سريعًا : «بالطّبع لا» . أدركَ أنّه مُختلفٌ ، واستثنائيّ ، ويُحلّق

في فضاءٍ أنّى لبشريّ أنْ يُدركه ، فكّر : «أمِنْ أجلِ أنّه لا شبيهَ لي يرونني معتوهًا» . «بلى» أجاب صوتُه الدّاخليّ . ثُمّ سمعه يقول : «الّذين لا يفهمونَ عبقريّتك يُسرِعون إلى نعتِكَ بالجنون» ، هَمَس هذه المرّة وهو يشدّ على أسنانه : «أنا سيّد الصّحراء ، ولن تهزمني الأفاعي الصّغيرة . لقد اعتدتُ على سَحقِها منذ طُفولتي» . اهتزّتْ ترقُوته فلاحظَ أنّه قد هَرِمَ كثيرًا في السنوات الخمس الأخيرة ، «مثل أبي الهول» قال . «لكنْ لا أحدَ يستطيع أنْ يجدع أنفي . لا عاديات الزّمان ، ولا تصاريف القدر ، ولا الله . أنا مَنْ خلقَ ليبيا وأنا سوفَ أُفنيها» . ارتجفَ الهواء الّذي حوله . لكنّه أشار بكلتا يدَيه كما لو كان يُهدِّئه : «خالِدان نحن ، والموتُ للجبناء» . عاودَتْه ذكريات الصّحراء ، عاوده المشي حافِيًا على الرّمال اللاهبة ، وصوتُ خاله ، ورُغاء الإبل ، وعزيف الرّيح ، وصدره العاري ، وثيابه الرّثّة ، وشَعره الأشعث ، وعطشه الدّائم ، ولسانُه المدلوق من فمه يستجدي الهواء قطرةَ ماءٍ عزيزة . «الآلهة تَخرج من الصّحراء» طمأنَ نفسه . «لكنّها في طريقها في التّخلّص من بشريّتها الخاذلة عليها أنْ تتعذّب كثيرًا . مَنْ يُدركُ كم صنم حطّمتُ وأنا أشبّ عن الطّوق ، كم جبّارٍ قصمتُ وأنا أناضل من أجلِ وَحدة بلادي . وكم مؤامرةٍ أجهضتُ وأنا أحافظُ على العرش الّذي عليه استويت!!» . قطعَ عليه سيلَ ذكرياته صوتُ ابنه قادِمًا من خلفه : «مولاي ؛ علينا أنْ نسير إلى سِرت هذه اللّيلة» . هتفَ دون أنْ يُدير رأسه ولا حتّى يميل بكتفه : «دَع يونس يتكلّم ، إنّه ثعلب الصّحراء ، أنتَ لستَ أكثرَ من ضَبّ» . قال يونس : «معتصم على حقّ» . تجاهَلَهما كما لو أنّهما غيرُ موجودَين . غاصَ في الصّحراء هذه المرّة أكثر ، تذكّر النّار الّتي أشعلها ذات ليلٍ صقيعيّ ، كان وهجها يُلقِي

بظِلاله على وجهه الأمرد وهو عاقدٌ ساقَيه بإحدى يدَيه ، ويعبثُ بالنّار بيده الأخرى . رفع رأسه ونظر في البعيد ، في الأفق ، في السّماء الّتي لا نهايةَ لها ، في الأحلام الّتي تتشكلّ للتّوّ . كان طِفلاً لم يبلغ الثّامنة ، وولدًا يروق له أنْ يُصغي إلى أغاني رعاة الإبل بعدَ يوم رَعَوِيٍّ طويلٍ وشاقّ ، ومنسيًا لا يعرفُ أباه ، ومنبوذًا لا أحدَ يحنو عليهِ غير خاله ، ومُهمَلاً كأنّه غير موجود ، ووحيدًا لا صديقَ له إلاّ أحلامه الّتي لا تكفّ عن التّحليق في فضاءات عقله . رأى النّجوم تبتسم له ، وكواكب لم تظهر من قبلُ لأحدٍ تتراقصُ أمام ناظِرَيه ، ركّز نظره في نجمةٍ بارزةٍ ، لم يكن يعرف اسمها ، تخيّل نفسَه يحطّ فوقَها ، وينظر إلى البشر من هناك ، بدتْ له الأرضُ صغيرةً وتافهة ، تخيّل قُطعانًا من البشر تذرعها بسرعة كما لو كانتْ أسرابًا من النّمل المذعور ، مدّ قدمَه فسحقَها ، هتف : «مَنْ لا يستحقّ العيش فعليه أنْ يُسحَق» .

المرآة تُغطّي الحائط الّذي يقف أمامه كاملاً ، في الخلف يبدو الأثاث متناثرًا في أرجاء الغرفة الواسعة . الثّلاثة ما زالوا يُحملِقون في قائدهم . في الخارج العزيزيّة تحوّلت إلى غرف عمليّات ، لا أحدَ يهدأ . التّعليمات العسكريّة تصكّ الآذان ، الأوامر باستخدام الدّبّابات والطّائرات تتطاير بعصبيّة من أفواه القادة العسكريّين . انتقل هذا الاضطراب إلى هؤلاء الثّلاثة القابعين ينتظرون ، كانتْ وجوههم شمعيّة لا تكادُ تُظهرِ شيئًا ، لكنْ في أعماق كلّ واحدٍ منهم كانت هناك نيران تشبّ ، وبراكين تتفجّر . نظر في المرآة من جديد : «لن يهزمني أحدٌ ، الآلهة لا تُهزَم . لئن أشرف التّيجاني في تاريخه على طرابلس ورأى بياضَها مع شعاع الشّمس يكاد يُعمي الأبصار فعرفَ لِمَ سُمّيت بالمدينة البيضاء ، إنّ سيفي الّذي سينزل على رِقاب الخونة ،

سيُسيل الدّم في أرجائها حتّى يُلطّخ جدران بيوتها ، وأسوارَ مدارسها ، ومآذن مساجدها ، فلا يُسمّونها حينئذٍ إلاّ المدينة الحمراء . . . مَنْ يجرؤ أنْ يقف في وجه الموج العالي؟! مَنْ يستطيع أنْ يتحدّى القدر الماحق؟! أنا الموجُ والموتُ ، أبتلع في طريقي كلّ أحد . أيّتها القُطعان السّائمة ويلٌ لكِ إنْ تجرأتِ على السّيّد الأبديّ ، لئن واجهتِني بهتافٍ ليس أكثر من ثغاءِ لِنعاجٍ مريضة ، إنّني سأواجهك بقطيعٍ من الذّئاب عُواؤُها تنخلع له الأفئدة ، ونظراتها الجائعة إلى التِهام ضحايًاها تنفطر لها القلوب» .

سكتتْ كلاب الذّكريات قليلاً . نظر في الزّاوية اليُسرى من جديد ، رأى الهياكل الثّلاثة ما زالتْ تقبع في المكان . شعر برغبةٍ جامحةٍ في أنْ يعضّ كلّ واحدٍ منهم في عنقه . لكنّه سمعَ هتافًا قادمًا من بعيدٍ ، من سنواتٍ سحيقة ، من قبل أنْ يُصبح هو السّيّد الأعلى ، كان النّاس يهتفون في الشّوارع : «حكم إبليس ولا حُكم إدريس» . ابتسم ابتسامةً واسعةً ، لم يبتسمْ مثلَها من قبلُ ، حتّى لقد كاد يسمع صوتَ ضَحِكته بنفسه . اهتزّ كتفاه على وَقْع الهُتاف ، لقد كان الشّعب آنئذٍ يسبق الشّعبَ اليومَ بمراحل . سأل يونس : «هل كلّ شيءٍ جاهزٌ؟» . هزّ رأسه بالإيجاب . صرخ به : «قفْ عندما تكلّم قائدك» . وثبَ من مكانه كأنّ عقربًا لدغتْه ، أدّى التّحيّة العسكريّة ، وهتف : «كلّ شيءٍ جاهزٌ يا سيّدي» . صرخ به العقيد بصورةٍ أعظم من سابقتها : «أَقْع أيّها الكلب . لم أعدْ أثقُ في أحدٍ» . تلقّى أقدمُ صديقٍ له أيّام الكلّيّة َالحربيّة الإهانة بصمت . إنّه أكبر منه ، وهو أكثر من يعرف العقيد ، «إنّ الوضع لا يُحتَمل ، أبو ليبيا كلّها يُواجَه بعقوقٍ من أبنائه ، ولذلك يبدو عصبيًا» . اعتذر عنه في نفسه . لكنّ صوت العقيد بعد تلك الشّتيمة تحوّل إلى هرير ، وخفض رأسه كما لو كان يريد أنْ

يعتذر ليونس ، أو يقول له إنّ الكلمات الّتي قلتُها لك لم أكنْ أعنيها . لكنّ ألمَ نزْع السّهم أشدّ من ألم نفاذه ، لذلك سكت . جالَ ببصره في المرآة ، كلّ شيءٍ يُذكّره بأبوّته للوطن ، لقد ضحّى كما لم يُضحّ أيٌّ من هؤلاء الّذين يُسمّون أنفسهم زعماء العرب . لقد واجه مئة وسبعين طائرة أمريكيّة على باب العزيزيّة وحده ، ونجا من الموت بأعجوبة ، ذلك أنّ الخالدين لا يموتون ، لقد قصفتْه أمريكا أمام سمع العالَم وبصره ولم يجرؤ أيّ حاكم عربيّ أنْ يقف إلى جانبه ولو بكلمةٍ واحدة . هو يعرف أنّهم جوقة من الجبناء ، من المهزومين ، من المُتبجّحين الفارغين ، من الّذين يُمارسون دور الذّيل الأعوج الّذي يهشّ على مؤخّرة الكلب كي تبرد ، مجموعة من الأصنام يطوف حولها عابِدوها دون وعي . ووحده الّذي ترك الزّعامة لشعبه ، وجعل كعبتهم الّتي يطوفون حولَها هي حُبّ الوطن ، والرّمز ، والأسطورة ، والخلود . وحده الّذي قال للغرب الكافر ، وأمريكا الصّليبيّة : لا ، في حين أنّهم جميعًا قالوا لها : نعم ، وأهلاً وسهلاً ومرحبًا ، ليس ذلك فحسب ، بل جَثَوا على رُكبهم ورفعوا مُؤخّراتهم من أجل أنْ تمتطيهم ، وتُنتِجَ ولدًا سِفاحًا هو الذّلّ والخنوع والانكسار . لا يزال يتذكّر أنّ (بشّار) ضحك ، و(عبّاس) ضحك ، وعبد الله ضحك ، وزين العابدين ضحك ، وبقيّة الحمقى ضحكوا ، حينَ قال لهم بعد موت صدّام : «الدّور عليكم» . أليستْ هذه نبوءة ، ألا ترفعه هذه إلى مرتبة الأنبياء ، أو أولئك الّذين انكشفتْ لهم الحجب ، وانهتكتْ أمامهم أستار الغيب . وماذا حدث؟ حدث ما قاله بالحرف . متى سيكفّ هؤلاء عن عمالتهم لأمريكا الصّليبيّة الحاقدة . شعر بالعطش . «أريدُ أنْ أشرب» لكنْ أيّ ماءٍ يُرويه ، وقد صار كلّ ماء بلاده مالِحًا!! أيّ ماءٍ يُرويه وقد تنكّر له الشّعب الّذي ضَحّى بحياته

من أجله!! أيّ ماءٍ يرويه وقد أفنى عمره ليصنع من كلّ فردٍ من أفراد شعبه عظيمًا ، لكنّهم أبَوا إلاّ أنْ يظلّوا قبليّين همجيّين يقتل بعضُهم بعضًا ، ولا يُتقنون شيئًا سِوى حياكة المؤامرات ضِدّي . ولا يشغل بالهم سِوى إسقاطي ، المجانين لا يُدركون أنّ العالي لا يسقط . الأبديّ لا ينتهي . النّور لا ينفد . العظمة لا تتبدّد . الأوّل لا قبله ، والآخر لا بعده ، والظّاهر لا يخفى . والشّاهدُ لا يغيب . أنا لستُ زعيمًا أيّها الحمقى ، لستُ ملكا ولا رئيسًا ، ولا أميرًا ، ولا شيخًا ، ولا سُلطانًا ، ولا أيًا من هذه الألقاب التّافهة ، أنا قائد ثورة ، والثّورة لا تموت ، أنا طائر العنقاء ، والعنقاء تنهضُ من رمادها حيّة . أنا النّجوم الهادية ، والنّجوم جاءتْ قبل البشر ، وشهدت حياةَ البشر كلّها ، وستبقى بعد أنْ يفنى البشر جميعًا . ما نطقتُ إلاّ عن وحي ، ولا أمرتُ إلاّ عن حِكمة ، ولا قضيتُ إلاّ عن عدل ، ولا رمَيتُ إلاّ عن صواب ، ولا خطوتُ إلاّ إلى مَجْد ، فأنّى لي أنْ أفنى؟! مَنْ ظنّ أنّ بقائي مرتبطٌ بجسدي ضَلّ . ومنْ ظنّ أنّ جسدي لي تاه ؛ إنّما الجسدُ قِشرة ، أنا روحٌ من الله لا يُنكرها إلاّ جاحد . ستُدركون إن انحلّت القشرة عن الرّوح معنى ما أقول ، أعرفُ أنّكم لن تفهموا ما أعني ، لأنّ ذلك أكبر من أن يعيه عقل ، لكنّكم ستعيشون ما أقول ، ربّما ليسَ أنتم فحسب ، بل أبناؤكم ، وأبناءُ أبنائكم ، وأبنائهم إلى يوم الدّين . أيّها المُعذّبون أنا خلاصكم ، أيّها الثائرون أنا منارتكم ، أيّهَا المنبوذون أنا بيتُكم ، أيّها التّائهون أنا دليلكم ، ها أنذا أقف على رحبٍ من الأرض في البلد الّذي أطلعتْ مُعجزتي أمدّ لكم ذِراعَيّ كما مدّهما المسيح لقاتليه : أنْ هلمّوا فابكوا سوء فَعلتكم على صَدْري ، وامسحوا سودَ خطاياكم بثوبي ، وناموا في أحضان إلهكم قليلاً لكي تنعموا بالدّفء ، واعترفوا

بضلالكم تحت قدمَي العاليتَين العاريتَين لكي تعودوا أنقياء مِمّا اقترفتم . خفتَ صوتُه الدّاخليّ لصالح نظرةٍ إلى أفق آخر .

أطراف المرآة مُذهّبة ، زركشاتٌ بديعة الصّنع تحتلّ الزّوايا . وتماثيل صغيرة تستقرّ متباعدةً قليلاً على الحوافّ الأربع بشكلٍ أنيق ، تماثيل أُسودٍ ونمورٍ وذئابٍ وزرافاتٍ وغزلان ، وثيران ، وفِيَلة ، يبدو أنّها نُحتت قبل عشرة آلاف سنة منذ فجر التّاريخ . في منتصف الحرف الأعلى كان هناك تمثالٌ يعرفه أهل الخِبرة ، إنّه تمثال (خوفو) ، منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ، تزوّج خوفو عروسًا ليبيّة لكي يأمن هجمات أهلها عليه ، ولكي يُصالح التّراب اللّيبيّ الّذي تَلدُ كلُّ ذرّة فيه مُقاتلاً . «حتّى ذلك الّذي قال أنا ربّكم الأعلى بعثَ إلى الطّينة الّتي خُلِقتُ منها يطلب الأمان» حدّث نفسه ، ثُمّ تابع : «أيُعقَل أنْ أستسلم لمجموعةٍ من الغوغاء!!» . أحسّ – بعد هذه العبارة – بمجموعةٍ من الفِئران تتسلّق قدمَيه ، نظر إليها من عليائه باشمئزاز ، وأحسّ أنّه يسحقها واحدًا بعدَ الآخَر . قال له معتصم : «أنا سأسبقكم مولاي» . لم يردّ ، ظلّ مُعطِيًا لهم ظهره أمام المرآة ، صمت . صمتتْ حتّى خيالاته ، مدّ يده إلى الكأس البلّوريّة الّتي أُحضِرت إليه للتّوّ ، كرع ما فيها دفعةً واحدة . فكّر : «حتى الآلهة يُصيبها العطش» .

(٢)
سِفْرُ الجُرح

لم أكنْ أحلمُ بأكثرَ من حياةٍ طبيعيّة ، كأيّ شابٍ في بلاد الله ؛ بلاد الله الواسعة أو الضّائعة . أتخرّج في الجامعة بالتّخصّص الّذي أريد ، وأحبّ مثل أيّ عاشقٍ له قلبٌ طريّ ، ويختارني القدر للعيش مع زوجةٍ يجد فيها المرء نفسه التّائهة ، وأُكوّن أسرةً في بيتٍ يحنو على ساكنيه . غير أنّ كلّ شيءٍ يجري غالبًا على غير ما تريد . كأنّ طريقًا تسلكه إلى غايتك ما إنْ تَسِرْ فيه بضع خطواتٍ حتّى ينفتح فجأةً ليوقعك في حفرة الخيبة . الخيبة الّتي تندقّ لها عنقك ، وتنكسر أمامها كفخّارة جوفاء . لم يكنْ من أحدٍ يعلم ما تُخبّئه الأيّام ، ولم أكنْ لأفكّر في ذلك ، ولذلك عشتُ خليّ البال . لكنّ الحبّ كان يلعب بروحي ، أتعرفون كيفَ يلعب الحُبّ بالرّوح؟! كان القلب يتشرّب العشق ، توقٌ ما إلى حبيبةٍ غامضة تسقط كهديّة من السّماء لعاشقٍ حالم مثلي ظلّ يُلاحقني . لكنّ الهدايا لا تأتي من السّماء ، والسّماء لم تمطرْ في ذلك العام ، بل لم تمطر طَوال ثلاثين عامًا لاحقة ، حتّى شاب الفؤاد قبل أن يشيب الرأس ، واشتعلت الرّوح حزنًا ، وغزت الجسدَ ألفُ طعنةٍ من ألفِ أسًى . ورُمينا نحن الحالمين كجيَفٍ في قعرِ مُظلمةٍ لثلاثة عقودٍ لم نر فيها النّور إلاّ بالمقدار الّذي يُحافظ على نورِ أعيننا من أنْ ينطفئ ، وإنْ كان كلّ شيءٍ فينا طَوال هذه العقود الثلاثة قد انطفأ حَقًّا ، واستحال إلى رمادٍ مَلأ الأفواه ، ودُفِنّا فيه كأنّنا لم نكنْ بشرًا يذرعون

الخُطا في الطّرقـات ، ويقطفـون الورود من الأحـواض ، ويتـصـايحـون مَرحين في الزّواريب ، ويلعبون في الحارات بكُبّة الصّوف الّتي حوّلتْها أمُّ أحدنا إلى كرةٍ لكي نملأ بها أوقات فراغنا ، كأنّنا لم نكنْ فـتيـانًا يزورهم الهُيام ويكتبون على الحيطان عبارات الغزل ببنت الجيران ، ولا يخطّون في دفـاترهم بعضَ خربشـاتهم ، لقـد فـقـدْنا دون أنْ يكون لـنا أدنى يد في ذلك كلَّ رغـبـةٍ في الرّحـيق ، وكلّ أملٍ في أنْ يكون لـنا عالَنا الطَّبيعيّ كأيّ حالمين آخرين!!

أيّها العابرون على جسد ذكرياتي ، أيّها الآتون إليّ لكي أقرأ لكم سِفْر الجُرح ، وآيات الحُزن ، أيّها الشّاربون من دم وجعي ، لقد آن أنْ أقول ، إنّ الصّمتَ يعني الجُبنَ والكُفرَ بالنّسبة ليَ ، وعليه فسأفيض بكلّ أوجاعي كما يفيض البحر بمائه ، وسأتفجّر كما يتفجّر البركان بحممه ، وسأتداعى من علياء حياتي المُهشّمة كما تتداعى الصّخور من قِمم الجبال . أنا الإنسانُ المذبوح ، السّاعي إلى المعرفة ، التّائق إلى الحِكمة ، الّذي سافرَ إلى أكثرَ من بلدٍ ليتعلّم قبل أنْ يُسجنَ إلى الأبد ، ليقرأ على أهل الإدراك ، وليجدَ فكرةً صالحةً يملأ بها رأسه في آخر المطاف . كانتْ بانتظاري حياةٌ لم أكنْ يومًا أتخيّل أنّني سأعيشها . وطريقٌ لم أكنْ أتخيّل أنّني سأسيرُها . نحن بوصلة الأقدار ، تهبّ رياحها على أشرعة أعمارنا المُبحرة في أمواج الحياة المُتلاطمة فتلعب بنا كيفما تشاء . وفي النّهاية لا مهربَ من البوح . الكتمان يُعذّب ، والبَوح يُريح . ولأنْ أبوحَ بقلبٍ مثقوبٍ خيرٌ من أنْ أظلّ صامتًا وكلّ يوم تتسرّب قطراتٌ من دمي خارجه ، أخافُ أنْ أفقد كلّ دمائي قبل أنْ أقول كلّ ما أريد ، لكنّني أدرك أنّ كلّ شيءٍ عنده بمقدار ، ولا شيء يستحقّ الحزن ، وكلّ طاغيةٍ إلى نهاية . نار الحقّ تحرقُ شجرَ الباطل .

والماء يُحيي ما مات منّي ، واليقين يُطفِئ نارَ القلب . وسأروي لكم .

في إبريل من عام ١٩٧٣ انتظرتُ دوري كالآخرين . لا شيءَ يمكن أنْ يُفلِتَ من عقاب العقيد حينَ أعلنَ ثورته الثقافيّة الخاصّة به ، وألغى كلّ القوانين ، وبدا مُصمِّمًا على تطهير البلاد من المرضى والمُنحرفين على حدّ تعبيره . وهتفَ أمام الجماهير المحتشدة : «أيّها الشّعب العظيم مَزّقْ كلّ الكتب المستوردة . . أيّها الشّعب العظيم حَطّمْ كلّ المكتبات ودور الكُتُب الّتي لا بنبعثُ منها النّور الحقيقيّ الّذي يَهدي . . أيّها الشّعبُ العظيم أحرقْ ودمِّرْ كلّ المناهج الّتي لا تُعبّر عن الحقيقة ، المناهج الّتي تحشو أدمغتَنا حَشوًا بموادّ فارغة ، حَطّموا وأحرِقوا كلّ شيءٍ» . لقد حَطَّموا وأحرقوا كلَّ شيءٍ بالفِعل!!

كان خطاب (زوارة) على حدود تونس في ذلك العام المقصلة الّتي آذنت بتطاير رقاب المثقّفين من كلّ المشارب . إنّه الخطاب الأشدّ بُغضًا في العيد الأشدّ حُبًّا إلى قلوب النّاس ، عيد المولد النّبويّ . دخل جماعةُ النّظام – من بَعده – إلى المكتبات ، ركلوا الكتب ، مزّقوا صفحات التّاريخ ، وداسُوا على مُقدّمة ابن خلدون ، ونَفْح الطّيب ، وتاريخ الطّبريّ ، وتفسير القرطبيّ . . . وأكلوا هريسةً وشطّة على صُحُفِ المجد ، وبالوا على أشعار عمر بن أبي ربيعة ، وبَصَقوا على مقامات بديع الزّمان . . . ثُمّ سحبوا أصحاب هذه المكتبات ، وزجّوا بهم في القيعان . ذلك العام المشؤوم ، عام الثّورة الثّقافيّة البائسة ، كان بإمكانكَ أنْ ترى آلاف الكُتُب تتكوّم في السّاحات العامّة ، وحولها مجموعة من القرود البشريّة يرقصون ، وأحدهم يقفز كسحليّة ، وآخر يسكب البنزين على الكومة الّتي تضمّ خيرة الإنتاج الإنسانيّ العظيم ، وثالث يرمي بجذوة ملتهبة ، فتشتعل النّيران في الكومة ، وتبدأ تنهش بخاصرة الكتب ، ثُمّ

تتغلغل إلى قلبها ، إلى أنْ تذوي بين يديها وهي تتلوّى تحت اللّهيب المُستعِر ، لم يكنْ من مشهدٍ يوازي هذه المُصيبة إلاّ مشهد حرق محاكم التّفتيش لكتب المسلمين في الأندلس ، وإلاّ إلقاء جيش التّتار الهمجيّ لملايين الكتب من مكتبة بغداد في نهر دجلة!! لقد أراد القائد أنْ يتحوّل إلى ماوتسي تونغ آخر ، لكنّه بدل أنْ تزدهر الكتب بين يدَيه راحتْ تموت ، وتنمحي ، وتتراجع في جُبّ الغياب دون عودة . لم يسلمْ أيّ صنف من الكتب من هذه الثّورة الثقافيّة الهمجيّة ، إنّها الفوضى الخَلاّقة الّتي سَعَى إلى إشاعتها بين النّاس ، لا كتب السّياسة ، ولا التّاريخ ، ولا الاقتصاد ، ولا القانون ، ولا الفكر ، ولا حتّى كتب الحبّ أو الشّعر أو الغزَل . لقد أتت المحرقة الثّقافيّة على كلّ شيءٍ .

لقد أتاحت الثّورة الثّقافية لأي أحد يمرّ من جانب الإذاعة ، أنْ يدخل ويقرأ النّشرة الإخباريّة ، وكانت تظهر التّخابيص والعجائب والمخازي في القراءة والتأتأة والأغلاط ، يدخل أمّيون وجَهَلة وبائعو بسطرمة ، وكانت النّشرة تمكث أربعَ ساعاتٍ . لقد دمّر كلّ شيءٍ . إذا كان شيء في الإذاعة لا يُعجبه يأتي إلى الإذاعة بنفسه ، ويُلغي البرامج كلّها ، ويعرض بُسطاره على الشّاشة ، ويبقى معروضًا طيلة اللّيل ، حتّى يملّ .

وحسب عبقريّة القائد فإنّ التّاجر في عُرفه سارق ، باعتبار أنّ التّاجر لصّ يسرق قوت النّاس . وفي الجمعيّة التّشاركيّة لا يحقّ للمواطن أنْ يشتري ما يريد من الأغذية ، بل عليه أن يذهب ليصطفّ على الدّور في تلك الجمعيّة ، وحين يصل الدّور إليه ، يُعطونه حقيبةً جاهزة تحتوي سلعًا عشوائيّة ، وأنتَ وحظّك ؛ فقد تجد ملابس نسائيّة تقع في يد الرّجل . وعليكَ أنْ ترى المشهد المُضحك المُبكي حيثُ

يتبادل النّاس على مبعدةٍ من الجمعيّة السّلع الّتي تهمّ كلّ واحدٍ منهم في شكلٍ أقربَ إلى المُقايَضة .

ولم يتوقف إلهام القائد عند هذا الحدّ ، إذ إنّ كلماته الّتي يراها الغوغائيّون مقدّسة : «اذهبوا وازحفوا إلى أيّ مديرٍ واحتلّوا مكانه» جعلتْهم مهووسين بالتّنفيذ ، ولهذا ثار عامل النّظافة في المستشفى على الطّبيب ، وضربَ طالبٌ شاذٌّ جنسيًا أستاذًا جامعيًا ، وجَرّ شيخًا من لحيته فتًى لم يحفظ سورة الفاتحة بعد ، وشُدّ أحد مُديري المُؤسّسات الزّراعيّة إلى جذع شجرةٍ وهو مُقيّد اليدَين والرّجلَين حافي القدَمَين تحت أشعّة الشّمس اللاّهبة وحوله عددٌ من الصِّبْية ينقفونه بالحصى ، ويقذفونه بالأوساخ مُبتهِجين!! وأُلغيت القوانين ، وصار كلّ شيءٍ يسبح في كلّ اتّجاه ، وهاجر الأطبّاء والمهندسون إلى الخارج ، وآثر بعضُ العلماء الهروب من الجحيم ، ولاذ بالصّمتِ كثيرٌ من المُفكّرين ، وبدا أنّ البلد تتّجه إلى أنْ تكون فارغةً إلاّ من الكلاب المسعورة ، والأشباح المرعبة ، واللّجان الثّوريّة الّتي تحكم وتتحكّم في كلّ شيءٍ .

كنتُ أركل الحصى في الطّريق حين كنتُ عائدًا من عملي في ذلك اليوم المشهود ، عددٌ كبيرٌ من جهاز الأمن العسكريّ كان ينتظرني أمام البيت ، سارَعوا إلى الإحاطة بي حالَما رأوني ، كانتْ أمّي تنظر من خلال النّوافذ وقلبها يضطرمُ خوفًا عليّ ، فتحت الباب وصاحتْ : «ماذا تريدون؟!» . دفعوها إلى الدّاخل ، وسألني أحدهم وهو يُقيّد يدَيّ من الخلف : «أرشِدْنا إلى غرفتك يا عليّ» . تقدّمتُهم . لا أدري لماذا لم أكنْ أشعرُ بالخوف حينَها!! ربّما الصّدمةُ هي السّبب ؛ كنتُ أحتاجُ وقتًا لكي أبتلع ذهولي ، وبالتّالي فقدتُ الإحساس؟! الحلم ربّما هو السبب الأقرب إلى حالتي ؛ كنتُ أحسّ أنّني أحلم ، ولذلك تابعتُ الحلم